University of Thi-Qar Journal of Humanties Science
Website: jedh.utq.edu.iq Email: utjedh@utq.edu.iq

Slaves between the hammer and the anvil
Reading in the works of the Al-Jahiz

العبيد بين المطرقة والسندان
قراءة في مصنفات الجاحظ

م . د. دنيا طالب محمد
قسم القانون الخاص
Email:dunea-t@utq-edu.iq

Abstract

Slaves live among the hammer of bitterness living under the rule of a despotic individual and the tyranny of his tyranny, between two things that are both evil. Al-Jahiz dealt with the examination and scrutiny to give us precise descriptions and disciplined systematic knowledge organized in a unique theoretical format.

We will not add anything, but we have to say that Al-Jahiz is an encyclopedic world. The field of phenomena that he has been exposed to and his deep insights on some important issues have been noticed, analyzed and derived from them. He is the writer who chooses the eyes of Arab poetry and prose to create it in various works

But the addition that we hope to provide is to shed light on a marginalized social group in Islamic history: the class of slaves in the works of Al-Jahiz, who counted the

man of his age undisputedly "speaking with the logic of that era and aware of his economic interests and social necessities" (1).

We will divide our research into two main axes, we care about the first slaves in the Al-Jahiz community, and the second with the declared or hidden positions of Al-Jahez. But the first element would be to invade the material longer than the second.

ملخص

يعيش العبيد بين مطرقة مرارة العيش تحت حكم الفرد المستبد وسندان بطشه ، فهم بين امرين كلاهما شرّ . تناولهما الجاحظ بالنظر والتمحيص ليعطينا توصيفات دقيقة ومعرفة منهجية منضبطة انتظمت في نسق تنظيري فريد من نوعه .

ولن نضيف شيئا ان اكتفينا بالقول ان الجاحظ عالم موسوعيّ ، اتسع مجال الظواهر التي تعرض لها وتبصراته العميقة بشأن بعض المسائل المهمة فيلاحظ الظاهرة ويحللها ويستنتج منها . وهو الاديب الذي يتخير عيون الشعر والنثر العربيين ليخلّدها في مصنّفات متعددة .

ولكن الاضافة التي نرجو تقديمها تكمن في تسليط الأضواء على فئة اجتماعيّة مهمّشة في التاريخ الإسلامي : فئة العبيد في مؤلفات الجاحظ الذي عدّ رجل عصره بدون منازع "يتحدث بمنطق ذلك العصر ويعي مصالحه الاقتصادية وضروراته الاجتماعية"[1].

سنقسم بحثنا الى محورين رئيسين ، نهتم في الأول بالعبيد في مجتمع الجاحظ ، وفي الثاني بمواقف الجاحظ المعلنة او الخفية منها . إلا أن المحور الأول سيكون ـ لغزارة المادة ـ أكثر طولا من الثاني .

Keyword: Slaves, the hammer, the anvil, Al-Jahiz

مقدمة

لقد رافقت العبودية جلّ الحضارات البشرية . ولم تشكّل الحضارة العربية الإسلامية المستثنى في هذا المجال . فما ان غمرها الترف حتى امتلأت البيوت والقصور بجوار وغلمان من مختلف الأجناس والأعمار [2] . بل عدّ امتلاكهم ضرورة لا يمكن لأي كان ان يستغني عنها مهما كانت درجة فقره . فقد قيل لرابعة القيسية "لو أذنت لنا كلمنا قومك فجمعوا لك ثمن خادم وكان لك فيها مرافقا وكفاك المؤونة وتفرّغت للعبادة"[3] . وقد وجدنا في مؤلفات الجاحظ منبعا زاخرا بتفاصيل حياة هذه الفئة وأخرى تبيّن مختلف العلاقات التي يعقدونها مع من يحيط بهم .

ويكاد الجاحظ يكون العالم الوحيد الذي تناول هذه الفئة بالدرس والتحليل ، ولم يكتف بجمع ما أثر عنها من اخبار واشعار ، ولأنه يكاد ينفرد ـ فيما اطلعنا عليه ـ بتقديم صورة شاملة لأغلب ملامح حياة هذه الفئة .

لذا سنعتمد في دراستنا على اربعة من مصادر الجاحظ رأينا انها تحتوي على جلّ ملامح الصورة التي نبحث عنها . وهي "المحاسن والأضداد" و"الحيوان" و "البيان والتبيين" ، والرسائل وتحديدا رسائل "فخر السودان على البيضان" ، "القيان" ، "مفاخرة الجواري والغلمان" ، "ذم الكتّاب" ، "الحجّاب" ، "النساء" .

ما نروم الإجابة عنه في هذا البحث هو كيف ينصهر العبيد في عالم العبودية عامّة وفي مجتمعهم الجديد خاصّة ؟ وما هي مختلف الوظائف التي يضطلعون بها ؟ وما علاقتهم بالطبقة الاجتماعية التي ينتمون اليها ؟ ما مقاييس اختيارهم وما علاقتهم بالوظيفة المناطة بعهدتهم ؟ ما هي خصوصيات ومميزات حياة هذه الفئة بمختلف اصنافها ؟ ما ميزات شبكة العلاقات التي يتحركون ضمنها ؟ وما مدى اختلاف القيان والخصيان عن غيرهم من العبيد ؟

المحور الاول

العبيد في مجتمع الجاحظ

اولا : العبيد ظاهرة اجتماعية

كم منزلا في الدنيا يألفه العبد . فيعيش حرا كان أو مملوكا بأسم عائلته او في عائلة انحدر منها أحد والديه أو كلاهما . يحيى حياة هادئة عادية ، سعيدة كانت او تعيسة . ثم ينقلب حاله بين عشّية وضحاها . فيؤسر ويسبى اذا كان حرا فيفقد حريته ويتحول عزه ذلا ، او يباع ويهدى ان كان عبدا فتتغير حياته وتتكدر نفسيته . فهذه جواهر تلوم سيّدها على بيعه اياها للخليفة امير المؤمنين دون خشية من عقاب لفرط ما اضطربت المشاعر في نفسها فتغني :

وانت الذي اخلفتني ما وعدتني واشمت فيّ من كان فيك يلوم
وابرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا ارمى وانت سليم

ولكن لا صدى لمشاعرها . فقد احبها الخليفة واشتراها بماله واصبحت من ممتلكاته فملّكها نفسه حسبما يقول :

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر وقد اكملك الله بحسن الدلّ والمنظر
إذا ما صلت ما أحسن خلق الله بالمزهر وغنّيت ففاح البيت من ريقك بالعنبر

فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبر فإن شئت ففي كفك خلع بن ابي جعفر [4]

فهو في كل الاحوال اذن ذلّ وهوان وفقدان إرادة وحرية .

لعمر ابي المملوك ما عاش أنه وإن اعجبته نفسه ذليل

ترى الناس انصارا عليه وماله من الناس إلا ناصرون قليل [5]

ومع الحرية يفقد العبد اسمه فيعرّف بمكانته الجديدة عبد فلان ، جارية فلان ، مولى فلان أو غلام فلان [6]. وغيرها من الالقاب التي تلّح على هذه المكانة الاجتماعية . ويطلق عليه اسم جديد يحبذ على ان يكون خفيفا على اللسان [7] . اسم يدفن معه الماضي السابق ويتعلّم معه صاحبه ثقافة جديدة ولغة جديدة ، قد يتعثر في تعلّمها في البداية . قد لا ينطقها

نطقا سليما فيحوّل الحاء هاء والعين همزة [8] . وقد يخطئ في النحو ويذكر المؤنث ، ويؤنث المذكر [9] . وقد يركّب الجمل تركيبا خاطئا ، وقد يعجز عن التعبير عن افكاره [10] . وقد يتأثر نخّاسة او صاحبه بطريقة كلامه قبل ان يصلحه [11] . ولكن كل هذا يبقى مستحبا منه خاصة ان كان غلاما امرد مليحا او جارية بارعة الحسن [12] ، ومقبولا من الزنوج الذين يملكون خصائص مشتركة في كلامهم مثل الفأفأة والحبسة [13] .

ويتكفل الزمن بعلاج الآلام ، وبمروره يتعوّد العبيد حياتهم الجديدة ، ويندمجون فيها ويضطلعون بمهام ومهن تلائم وضعيتهم .

وتختلف هذه المهن بخلاف الوسط الاجتماعي الذي ينتمي اليه العبد والسيد فمن ينتمي الى العامة يمكن ان يختار له سيّده صنع النعال [14] . او ان يستعمله في الطبخ [15] ، او الصيرفة [16] ، او التجارة [17] ، او ان يكلّف برفع الاثقال [18] ، او الرعي [19] ، او الحجامة ، او القيام بشؤون النساء [20] .

اما ان حالفه الحظ وحصل على مواقع في القصر او لدى الخاصة فستتغير حياته وسيرتفع قدره وستختلف المهن التي سيضطلع بها فمنهم من سيحرس النساء [21] ، ومنهم الحجّاب الذين سيكونون همزة وصل بين السيد والعالم الخارجي [22] ، ومنهم من سيشتغل بالغناء والترفيه عن صاحبه [23] ، ومنهم من سيوظّف في الجيش [24].

الا ان العبد يبقى عبدا معرضا للإهانة ، مصنفا في اسفل السلّم الاجتماعي . فهو عاجز عن ضبط مشاعره ولا يتوانى عن كشف اسرار سيّده [25] . يهابه اذا ما رآه ويغتابه في غيابه [26] . فيذكر الحجّاب ـ الذين يختارون الداخل الى سيّدهم ويتحكمون فيه بشكل غير مباشر ويتحكّمون في الاحرار القادمين اليه ـ دوما بأنهم غلمان وعبيد .

ولست أحبّ الشريف الظريف يكون غلاما لغلمانه [27]

أو

ان تركت العبيد والحكم فينا صار فضل الرؤوس للأذناب

فأحلّوا اشكالهم رتب الفض ل وحظّ الاحرار عفر التراب [28]

ولا ينسى الضمير الجمعي ان الجواري عامّة والقيان خاصّة قد " تداولتهن ايدي النخاسين ووقع ثمنهن في الموازين ونودي عليهن في الأسواق ومرّت عليهن ايدي الفسّاق "[29].

والمهنة التي يضطلع بها العبيد ليست مرتبطة بالمكانة الاجتماعية التي ينتمي اليها فحسب ، بل هي وطيدة الصلة بالعرق .

والعرق من المقولات المهمة التي فسّر بها الجاحظ تصرفات العبيد عامّة والمهن التي يتولّونها ويضطلعون بها خاصّة . فهو عند صاحبنا معطى طبيعي بيولوجي ومكّون ثقافي في الآن ذاته .هو بيولوجي لان بشرة السودان يرجع الى أثر المناخ فيها . فقد غيّر بني سليم ـ وهم قبيلة عربية مشهورة بسواد البشرة ـ بشرتهم باتخاذهم إماء من اسبانيا ومن الروم . فما يتوالدون ثلاثة بطون حتى تتغير الوانهم [30] . وهو مكتسب ثقافي لان الانسان ينشأ على ما يتعود عليه قومه وقد ضرب على ذلك مثلا ذا علاقة بالجنسانية ، فكل قوم يشتهون سبيهم إلا جلبهم وسبيهم إلا الشاذ [31] .

فيتمّيز الزنج بصفات جسمانية تمنحهم قوة أبدان وشجاعة تهيؤهم للقيام بالأعمال الجسدية الصعبة [32] . ويختص السند بأصوات حسنة ترشّح القيان السندية لأن يكنّ افضل القيان [33] . وعدّ العبيد السنديون ايضا الأمهر طبخا والأدق حسابا في الصيرفة ، وعادة ما يورثون اصحابهم ثروة [34] .

في حين يتسم الصقالبة ببلاهة وغباوة فطرية فيهم لا دواء لها . في رأيه غير الخصاء . فإذا ما خصيّ الصقلبي صار "اجود خدمة وافطن لأبواب المعاطاة والمناولة وهو لها اتقن ، وبها اليق ويكون ذكيّ العقل عند المخاطبة"[35] ، على نقيض السودان الذين تثقل حركتهم ، ويذهب نشاطهم بعد الخصاء [36] . ولعلّ هذا ما يفسّر كثرة استخدام الصقالبة في البيوت .

ولكن هذه المعطيات التي يبدو انها كانت سائدة في عصر الجاحظ ليست الا عنصرا مكّونا من العناصر التي يضعها المرء في اعتباره عند الرغبة في اقتناء عبد . اذ ترتبط بقيّة العوامل والمقاييس بحاجاته وبما ينتظره من المملوك .

فقد اختار هارون الرشيد غلاما رزينا ، امينا ، واسع المعرفة لتأديب ابنه [37] . واهدى بن الطاهر المتوكل جارية اديبة تقول الشعر وتلّحنه وتحسن من كلّ علم احسنه [38] . وأوصى عمر بن الخطاب من يبغي اقتناء عبد ان يختار اكثرهم حياء [39] .

إذ يبحث جميع السّادة على مختلف طبقاتهم الاجتماعية عن عبد مثالي يكون في مستوى انتظاراتهم يجمع خاصّة بين الجمال والحذق والإخلاص في الخدمة والحرص على مصلحة السيّد وخفة المؤونة [40] . ويسعون الى تجنب الوقوع في عبد سوء كثير الإباق ، مجادل لسيّده ، إن جوّعته سرق الجار وان اشبعته فسق [41] .

ويدفعنا الحديث عن اختيار العبد الى تحليل شبكة العلاقات التي يتحرك ضمنها العبد ،فما مميزات هذه العلاقة ؟

يتعامل العبد مع عدة اطراف من سادة (رجال ونساء) ، وعبيد مثله (جواري وغلمان) وتخضع كل هذه العلاقات الى ميزان القوى . فالقوي هو المتحكم في الضعيف . والحرّ هو المسيطر على العبد . وتعد الإهانة الجسدية والمعنوية ابرز ادوات تجسيد هذه السيطرة ، فألحّوا على ان الحرّ يلحى والعصى للعبد ، وأن العبد يقرع بالعصى والحرّ تكفيه الملامة [42] . وتعددت الآثار التي تروي حوادث ضرب العبيد ، فهذا الناطفي يضرب عناناً بلا ذنب [43] . وهذا آخر اقام حملة ضرب وتأديب لجواريه وغلمانه بلا سبب يذكر غير قلة ثقته فيهم [44] .

الا الضرب مهما كان مؤلما فإنه ارحم من قلع العينين او دق الأنف . وقد يكون ذلك اشدّ إيلاما من الإهانة اللفظية . فلو كان القول يكلم الأجساد لامتلأت الاجساد كلوما .

لكنهم قد يردون الفعل فهم بشر يحسّون ويشعرون وقد يثأرون لكرامتهم سرا او جهرا ، قولا او فعلا . فتمتمت جارية بعدما جلدها سيّدها "الخيرة والله في فراقك ما تقرّ عين احد

بصحبتك"[46] ، وهجا بعضهم اسيادهم [47] ، واختار آخرون الإباق وسيلة للتعبير عن احتجاجهم ورفضهم لهذه المعاملة [48] .

ويعيش السيّد ـ نتيجة هذه العلاقات ـ في قلق مستمر من خيانة العبد . ويحيى العبد في رعب تخوّفا من عقوبات هذا السيّد الذي يتحكم في موته وحياته ، وحريته وعبوديته .

ولكن هذا الواقع السائد ليس النموذج الوحيد لمعاملة الأسياد لعبيدهم فتجد الجارية متعلقة بسيّدها تأبى فراقه ، فتعاتبه عند بيعها قائلة :

وأنت الذي اخلفتني ما وعدتني وأشمتّ فيّ من كان فيك يلوم [49]

وتجد العبيد ـ في مواضع مخصوصة ـ متحكمين في اسيادهم . فهي اذن علاقة تتغير بتغير الزمان والمكان والمناسبة . فينقلب السحر على الساحر في مجالس اللهو والطرب الذي يمثّل الجواري والغلمان فيه العمود الفقري . ويصير العبد حينها سيّدا والسيّد عبدا يفقد رزانته وهيبته وقدراته الذهنية . ويتحلل من كل عقد تمكّنه من ممارسة سيادته وسلطته . فقد تجد الرجل الحليم والشيخ الركين يسمع الصوت المطرب من المغنيالمصيب فينقله ذلك الى طبع الصبيان والى افعال المجانين ، فيرقص ما يرقص الحدث الغرير والشاب السفيه [50] .

وقد يفقد الخليفة السيطرة على مشاعره من شدة الطرب ، فيعطي الجارية كل ما تطلبه وان لم يكن قادرا على ذلك [51] . وتستغل الجارية ضعف سيّدها فتستعمل اسلحة اخرى تنال بها كل ما تبتغيه . فتوظّف الإغراء لتصيّر الحكيم حمارا يلبس برذعة . وتستعمل الكذب والحيلة لتتمكن من سلب قلب مولاها وتنال مرغوبها منه بيسر قبل ان تصارحه . . وتبقى الدموع سلاحها الفعّال الذي تذيب به قلوب الرجال . وان لم تفدها كل هذه الاسلحة تلجأ

الى قدرتها على الذلّ والتذلل ـ الذي تستنكف منه الحرّة ـ لتنال الحظوة لدى صاحبها . الم تقبل محبوبة محظيّة المتوكل رجليه وتمرّغ وجهها في التراب حتى اخذ بيديها راضيا ؟

بهذه السلطات ـ التي تكون خاصّة الإماء ـ تتمكن الجارية من كسب قلوب الرجال الذين يسعون دائما الى الحصول عمّا ليس في أيديهم [52] .

وقد برر الجاحظ ميل رجال عصره الى الإماء مقابل عزوفهم عن الاحرار بتوفر عامل الحب . فالرجل هو الذي يختار الأمة حسب ذوقه الخاص وحسب احتياجاته . امّا الحرائر فيفرض عليه من قبل نساء لا يعرفن ذوقه ومذهبه في النساء [53] . ولكن رغم ذلك يبقى قدر الحرّة ارفع من قدر الأمة رغم الظلم الذي تعيش فيه . فالرجل يغار على حرته ويبالغ في حبسها في حين يتهافت على الإماء الذين تداول عليهن الرجال .

وقد وجدت الحرّة نفسها في هذا المجتمع في منافسة بل احيانا في مفاضلة مع من لا تضاهيها شرفا ونسبا . ففرض عليها ان تعيش علاقات خاصّة ـ غالبا ما تكون متوترة ـ مع الإماء .

فمنهن من حسمن القضية منذ الزواج فاشترطن على ازواجهم عدم التسّري عليهن ، لكن هذه الحالات كانت شاذة ومرفوضة من قبل الرجال الذين حاولوا ايجاد حلول بديلة مثل الاستفتاء [54] . او التسرّي بعد موت الزوجة [55] ، او ستر الحقيقة عنها [56] .

ولذا وجد اغلب الحرائر انفسهن في منافسة مع حظايا اخرجنهن من دائرة الضوء . مسجونات في بيت او قصر . يتولى العبيد قضاء شؤونهن وربط العلاقة بينهن وبين عالم خارجي يكدنّ لا يعرفنه [57] . فداوت بعضهن وضعها بالتي كانت هي الداء ، واستعملن جواريهن وسيلة تخطيط وتدبير لاسترجاع مكانتهن عند الزوج [58] . او سلاحا يبطشن به فيضربن ويسرقن ويقتلن عوضا عنهن [59] . واختارت بعضهن الانتقام والمعاملة بالمثل سبيلا

لرد الفعل . فزنين مع الخصيان مبررات ذلك بطول السواد وقرب الوساد [60] . مسندات لعبيدهن سلطة عليهن لأنهم يكتمون اسرارهن ، ومن يفشي سره عبد قنّ مملوك لمن يأتمنه على سرّه ويملّكه رقبته [61] .

ولكن لا يستطيع العبد رغم هذا ان يمارس سلطة كاملة على من هو ارفع منه مكانة اجتماعية ، وابرز منه موضعا في المركز الاجتماعي ، بل يمارسها اذا ماتحكّم فيمن هو مثله او دونه منزلة . فالعديد من العبيد قد امتلكوا رقيقا ليخدمونهم ليصيروا اسيادا من درجة ثانية ـ إن شئنا ـ وقد عددناهم من درجة ثانية لأنه لا حق لهم في عتق عبيدهم ولا في التصرف فيهم . فمنهم من امتلك عبدا وعجز عن بيعه او عتقه . فيكتفون باستخدامهم فيما يستنكفون منه او ما يعجزون عنه لأي سبب من الاسباب ، فيطبخون لهم [62] ، او عوضا عنهم [63] ، ويحرسونهم ويقضون لهم شؤونهم [64] . الا ان عبيدهم قد يصبحون منافسين لهم لدى السيّد الرئيسي . ولعل ما حصل بين معاوية بن ابي سفيان والجارية الخرسانية ووصفيتها اكبر دليل على ذلك [65] .

وقبل ان نغلق ملف العبيد بوصفهم ظاهرة اجتماعية لا بد من تأمل صنفين توقف عندهما الجاحظ وحللهما محاولا استقصاء الابعاد النفسية والاجتماعية الكامنة وراء تصرفاتهما لما قاما به من دور فعال في مجتمعه ، هما الخصيان والقيان ، فما مميزات هذه الفئة ، وما مدى اختلافاتها عن بقية العبيد ؟

ا ـ القيان في مجتمع الجاحظ

تعدّ هذه الفئة في عصر الجاحظ إحدى متع الحياة الدنيا ، وعدّت مجالسهن جنة عدن [66] ، والفردوس الاعلى لدى بعض الرجال [67] . هنّ جوار تمّ اقتناؤهنّ وتأديبهنّ وتخريجهنّ . فعلّمن الغناء والأدب والشعر وصناعة إغراء الرجال وابتزاز اموالهم باستعمال الشعر

والمراسلة والابتعاد والاقتراب ، والتلاعب بمشاعر ثلاثة او اربعة رجال في الآن ذاته وان كانوا مجتمعين [67] . وهي صناعة تدّر على صاحبتها وعلى مولى صاحبتها اموالا طائلة لا تكلّف النخاس شيئا اذ يتولى الأحباب جلب الهدايا والطعام والشراب مقابل النظر اليها ومجالستها [68] . فهي اذن تجارة مربحة تدّر اموالا طائلة دون مصاريف تذكر ، ودون ان يبذل المقيّن مجهودا غير جلب الحرفاء الاثرياء وتوطيد العلاقة مع رجال السياسة .

فيحضر النخّاس الحرفاء لقينته ، ويقوم بدور الفاصل الواصل بينهم وبينها . فإذا ما تبيّن أن السمكة قد ابتلعت الطعم يترك لجاريته الحبل على الغارب ، فلا يغار عليها ولا يحاسبها بغية ابتزاز الضحية المسكين [69] . وما ان ينالا مرادهما حتى تظهر القينة على حقيقتها فتغدر به وتتركه وتبحث عن بديل يبذل الطارف والتليد من اجلها ، ويوطد العلاقة مع رجال السياسة بغية الحصول على زبائن اثرياء يقدّرون قيمة بضاعته من ناحية ويقونه عادية الشرط والأعوان من ناحية ثانية [70] .

وقد اثارت هذه الظاهرة في نظر صاحب رسالة القيان قضيتين اولاهما خاص بالقينة وثانيهما برواد مجالس القيان . فبحث في الظروف الاجتماعية التي دفعتها لتكون على ما هي عليه فألحّ على انها فتة تمتاز بقدرة على السحر تفوق هاروت وماروت لكنهم حاولوا ان يفهموا الظروف الاجتماعية التي تنشأ فيها والتي تجعلها على ما هي عليه ـ إنصافا لها ـ .

فالقينة من حين قدومها أو مولدها تتعلّم وتتلّقن أساليب خداع الرجال ومماراتهم في الشعر واللعب والغناء واللهو ، وجلّ زبائنها من الفسّاق والمجّان والخلعاء . فلا مجال لها بالتالي للاتصاف بالأخلاق الحميدة ، او الارتداع بدين يصدّها على ما هي عليه . فالذنب اذن ليس ذنبها وحدها بل هو ذنب مجتمع احتاج لترفه صنف من النساء مغاير لما يعرفونه فصنعه وقدّمه للرجال .

ولعل هذا ما يمكن ان يبرر سلوك الرجال المتسم بالظلم ، وبعدم العدل مع الحرائر . فهم وان كانوا يقّرون بارتفاع قدر الحرة ، ويعيبون اتباع الأمة ، ويستهجنون اتباع الشيوخ لمجالس الإماء ، ويعيرون ابناء الجواري بأمهاتهم مهما بلغ شأنهم ، الا انهم في المقابل يناقضون انفسهم في سلوكهم ، فيرفضون الحرّة الثيّب ويلومون زوجها ويتخذون في المقابل من الأمة محظيّة رغم تداول الموالي عليها ، ويغفرون لها اذا ما تزوجوها واصبحت ام ولد . وهذا ايضا ذنب الضمير الجمعي الذي قضى على الحرّة في الغالب ان تعيش سجينة الخدور ، محرومة من الادب والفنون قاصرة على مجاراة الرجال في حياتهم ، فآثروا عليهن القيان اللائي يتقنّ الشعر واللهو والمجون ويقدّمن لهم ما تعجز وتستنكف عنه الحرّة . ولعل هذا ما دفع بعض الحرائر الى عقد صلات مع الخصيان .

ب ـ الخصيان في مجتمع الجاحظ

عدّهم الجاحظ صناعة ايضا ،منتجوها الأساسيون هم النصارى الذين "يدّعون من الرحمة والرأفة ورّقة القلب والكبد ما لا يدعيه احد من جميع الأصناف"[71] ويشترك فيها البائع والمشتري لتشجيعهم على التمثيل بخلق الله [72] . وعدّ الطريقة المباحة لامتلاكهم هي التهادي فالخصي "هدية كهدية الثوب والعطر والدّابة والفاكهة لا يحل طرده ونفيه ويجوز عتقه "[73].

وحلل الخصاء تحليلا علميا مبررا آثار الخصاء الجسدية والنفسية انطلاقا من تأمله لنماذج من الخصيان .

فتبيّن أن هذا الفعل عادة "ما يقوي الشهوة والمعدة ويلّين الجلدة ويكثّر الدمعة ويكسب الخصي بضاضة وملاسة جلد وكثرة ماء وبريقه وطول عمر فإذا ما مرض او طعن في السنّ يعتريه تكسّر وجمود وتقبّض وتحدّب وهزال وتعوج اصابع اليد والتواء اصابع القدمين وتساقط شعر البدن وأمن من الصلع"[74] . وتمسّ هذه الاعراض الجسدية جلّ الخصيان إن لم نقل كلّهم . لكنّ هناك عوارض أخرى تطرأ على عرق دون غيره ، فتتغير اصوات الصقالبة

أكثر من الخرسانيّة والسودان والحبشان . ويزكّي الخصاء عقل الصقلبي ويرهف حسّه ويشحذ طبعه في حين "ينقص الخصاء من الحبشي ولا يزيده ويأخذ منه ولا يعطيه إذ تسقط نفسه وتثقل حركته ويذهب بنشاطه ولا بدّ ان يحصل له فساد"[75] .

وإن اورد الجاحظ بحثه انطلاقا من قيامه بملاحظة الظاهرة ثم تعريضها للتجربة والتمحيص ثمّ الاستنتاج إلا اننا لا نشكّ في ميله الى الحبش ودفاعه عنهم ، فهم فحول لا يجوز خصاؤهم لأنهم قادرون على القيام بالمهمات الصعبة التي يعجز عنهم الاحرار .

إذ يعجز الخصيان عادة عن القيام بالصناعات التي تستوجب مشقّة فيشتغلون بصناعة الدبوق (وهي لعب الاطفال) او بدعاء الحمام او بعمل تكك السراويل او بهراش الديوك (والهراش هو التقاتل) وهي اعمال اليق بالنساء والاطفال . ولعل هذا ما قصده الجاحظ بقوله ليس الخصيّ رجلا او انثى بل هو بينهما [76] . والمهمة التي اختص بها الخصيان هي حراسة النساء . إلا ان بعضهم قد يعشق سيّدته ويزني معها ان كانت حرّة . وقد يمنع غيره من عشقها او الاقتراب منها ان كانت قينة او أمة [77].

ويظهر أن من نساء ذلك العصر من كنّ يحبّذن الخصيان لعدّة اسباب فهو ممنوع عنها لكنه قريب منها ، وكل ممنوع مرغوب . وهو في الآن ذاته مأمون الجانب لا يخشى معه الحمل والفضيحة . وهي التي تعيش حالة كبت وفراغ نتيجة المزاحمة الشديدة التي تلقاها من الحرائر والحظايا ، ولأنه في الآن ذاته عبدها واقلّ مكانة اجتماعية فتستطيع ان تكون معه على طبيعتها ولا تتصنع التكلف ، مثلما يقول صاحبنا الذي لم يشأ في الآن ذاته ان يعمم وجهة النظر هذه ، فأكد على ان من النساء من يتسرّن منهم لأن "المثلة بهم لا تحلّ ما حرّم الله عليهم"[78]. ويعرض للخصيّ ايضا امراض نفسية فتصير اخلاقه "شبيهة بأخلاق النساء فيصير سريع الغضب ، محبا للنميمة ، مفشيا للأسرار ، حسودا للفحول"[79] . لكنه يبقى الملاذ الوحيد للرجال الذين يحرصون على مراقبة نسائهم .

يمثّل العبيد بمختلف اصنافهم اذن بضاعة بالأساس تباع وتشترى وتتبادل وتكلّفبالصناعة والتجارة مثلما سبق ورأينا . وهو ما يدفعنا الى البحث في العبيد في الحياة الاقتصادية بوصفهم بضاعة من ناحية ، وعنصرا فاعلا من ناحية اخرى .

ثانيا : العبيد في الحياة الاقتصادية

ركّز الجاحظ في العديد من المواضع في بحثه على العبيد بوصفهم بضاعة تباع وتشترى وتهدى . وقد اهتم بصيد العبيد . وخاصة صيد الزنوج . باعتباره من ابرز موارد الحصول على العبيد . إذ يرتاد النخّاسون السواحل ، "وسكانها من سفلة الزنوج وعبيدهم ليس لهم جمال ولا عقول ، اما اشرافهم فلم يكونوا يسكنون السواحل خوفا من الصيد"[80] . وما ان تحلّ غنائم العبيد بأرض العرب حتى يصيروا تجارة من التجارات تقدّر أثمانها اعتمادا على الجمال وجودة القدّ وصغر السن والصناعة وتشكل القيان الاستثناء في هذا المجال ، اذ يحدد ثمنها بمدى حب السارد "ولو بعن كما يباع بقيّة العبيد لما تجاوزت الواحدة منهنّ ثمن الرأس الساذج"[81] .

هي إذن بضائع مقدّمة للطالب يقلبها ويتخير منها ما يلزمه ، وتساهم مساهمة فعّالة في الدورة الاقتصادية إذ نشأت عنها العديد من الوظائف الاقتصادية مثل النخّاس وهو تاجر الرقيق ، والدلّال ، والناشد "وهو في الاصل الذي ينشد الإبل ويطلب الظوال فيأخذها ويحبسها على اربابها ، وهو المعرّف الذي يرفع صوته بالتعريف "[82] . ويظهر انه وسع نشاطه ليشمل العبيد الآبقين .

وهم بالإضافة الى كونهم يكلّفون بالتجارة والصيرفة والصناعة ، فيساهمون في تطوير الحياة الاقتصادية في المجتمع . لكن المجتمع والاقتصاد ليسا المجالين الوحيدين الذين يحضر فيهما العبيد ، بل نجد لهما مكانة بارزة في الحياة السياسية ايضا . فما ابرز وجوه هذا الوجود ؟ والى اي مدى تقبّله الأحرار ؟

ثالثا : العبيد في الحياة السياسية

لقد ظهرت لنا علاقة العبيد بالسياسة من خلال بعض الآثار التي استنطقناها فأنبأتنا ببعض الوظائف السياسية التي اضطلع بها العبيد في القصور مثل الكتّاب . فالعديد من كتّاب الخلفاء كانوا عبيدا او موالي تم عتقهم . وقد برّر صاحبنا ذلك بأن الكتابة قريبة من الخدمة "ولا يتقلّدها إلا من هو في معنى الخادم ...وأحكام الكتّاب احكام الأرقّاء"[83]. وقد يرجع ذمّ الجاحظ للكتابة الى تقديسه العلم . ولأنها لشرف قدرها لا يضطلع بها إلا من لا حظّ له فيها .

وقد اضطلع العبيد ايضا بالحجابة . فقد كان الحجّاب . وهم همزة وصل بين الخلفاء وبين قاصديهم . عبيدا . وقد سبّب هذا الامر حرجا لقاصدي الراعي . فيحسّون بأن هؤلاء الطماطم السود او الصقالبة الحمر ليسوا إلا عبيدا يستغلون مناصبهم ليتحكموا في سيّدهم باختيار من يدخل له . ويصير السيّد بالتالي تحت سلطة غلمانه :

ولست احب الشريف الظريف يكون غلاما لغلمانه [84]

وليفرضوا سلطتهم على الاحرار و

وليس يرضى الحر الكريم ولو اقطعته الأرض أن يذل العبد [85]

ويعدّ الترفيه عن الملك ابرز مجال ظهر فيه الجواري والغلمان فقد "كان للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدوواين ويجلسن للناس أحسن ما كنّ فما كان ينكر ذلك منكر ولا عابه أحد"[86] . ولهذا كنّ يسعين ويخطّطن للوصول الى الخليفة . فقد ارسلت عنان الى الفضل بن الربيع وزير الرشيد :

كن لي هديت الى الخليفة سلما بوركت يا بن وزيره من سلّم

حث الأمير على شراي وقل له ريحانة ذخرت لأنفك فأشمم[87]

وقد تغيّر مصير العديد منهنّ بمجرد انتقالها الى القصر . فقد قصّت خيزران جارية الثقفي رؤيا رأتها على سيّدها عبّرها بأنها ستلد خليفتين فقرر أن يعطيها فرصتها ويبيعها [88] .

وعندما عرضت على المنصور وسألها حددت ولادتها ومنشأها واعلنت ان لا اهل لها . فأعجب بجمالها وبشخصيتها وبعث بها الى المهدي لأنها " تصلح للولد"[89] .

ولّما تمكن حبها من قلبها وتحققت رؤياها فأنجبت خليفتين ـ موسى وهارون . صارت بفضلهما ام ولد . صارحته بان لها " لها اهل بيت في جرش هما اختان أسما وسلسبيل وأم وأخوان"[90] فأمر بإحضارهم وزوّجت سلسبيل من جعفر بن منصور وصارت أما لبنت سيتزوجها الرشيد ولم ينته اكرامها عند هذا الحد بل اعتقها وتزوّجها لأنها انجبت رجلين بويع لهما بالخلافة [91].

لقد كانت الخيزران نموذجا لجارية تغيّر مصيرها ومصير أهلها عند وصولها الى الخليفة وتمكّنها من كسب ودّه . وما يشدّ الانتباه في قصتها هو تغافل الخليفة عن كذبها وتزويرها للحقيقة وغفران كل ذنب لها لمجرد انجابها لخليفتين .لقد صدق الجاحظ في قوله عنهن "سحر القيان " .

ولعل السحر الرئيس الذي يتميز به الإماء عن الحرائر هو ثقافتهنّ وابداعهن في الشعر والغناء ليسلبن قلوب رجال ارهفها الترف . وهو ما يدفعنا الى الحديث عن مساهمة العبيد في الحياة الثقافية . فقد كانوا منتجين لها خلّد لهم التاريخ آثارا شعرية وادبية عديدة من ناحية مثّلوا محورا للعديد من الأعمال الادبية التي خلّها التاريخ

رابعا : مساهمة العبيد في الحياة الثقافية

نظّم الشعراء في العبيد وافاضوا وصوّروهم شعرا ونثرا فأجادوا وتغزّلوا بهم وهجوهم فأبدعوا .لقد دفعهم جمال العبيد الى رسم بياضهم وسحر الفاظهم والحاظهم ، فاستحالت الجارية في اعينهم :

ضبي تكامل في نهاية حسنه فرها ببهجته وتاه بصدّه

فالشمس تطلع من فرند جبينه والبدر يغرق في شقائق خدّه

ملك الجمال بأسره فكأنما حسن البرّية كلّه من عنده (92)

ورأوا الغلام :

شبيه بالقضيب والكثيب غريب الحسن في قدّ غريب (93)

له لحظ وحشيّة والفاظ انسانة (94)

واشعلوا نار الشوق في مكنوناته فوظفوا الشعر مرسالا يكشف المستور ويشفّ عما يختلج القلب من شعور :

انت يا جوهر عندي جوهره في بياض الدرة المشتهرة

فاذا غنت فنار ضرمت قذفت في كل قلب شرره (95)

أو

ألا يا جوهر القلب لقد زدت على الجوهر وقد اكملك الله بحسن الدل والمنظر

فلا والله ما المهدي اولى منك بالمنبر فان شئت ففي كفك خلع ابن ابي جعفر (96)

وتعددت الاخبار التي تصوّر الرجال في محاسن القيان . اذ تخيّل بعضهم انه دخل جنّة عدن والحّ آخرون على أنهم يفقدون السيطرة على العقول وعلى الوجدان [97] .

ولكنّ قلة . فيما عثرنا عليه لدى الجاحظ . لم يجرفهم هذا التيار ، فحذّروا منه الأحرار :

اذا لم يكن في منزل المرء حرّة رأى خللا فيما تولى الولائد

فلا يتخذ منهنّ حرّ قعيدة فهنّ لعمر الله شرّ القعائد [98]

وليس الجواري في هذا بأرحم من الغلمان الذين يستغلون هامش حرية التصرف المتاح لهم ليتحكموا في اسيادهم وفي ضيوف اسيادهم :

ان تركت العبيد والحكم فينا صار فضل الرؤوس للأذناب

فأحلوا اشكالهم رتب الفض ل وحظ الاحرار عفر التراب [99]

فعلى المالك اذا ان يتخير عبيده ، لأن الطيور على اشكالها تقع :

فلينظرن المرء من غلمانه فهم خلفاؤه على اخلاقه [100]

أو

ان وجه الغلام يخبر عمّا في ضمير المولى من الكتمان

فإذا ما جهلت ودّ صديق فامتحن ما اردت بالغلمان [101]

ترك لنا صاحبنا إذن مادة ثقافية ثرّية تكشف لنا عمّا أثارته ظاهرة العبيد في ذلك العصر في المجتمع . لكن هذه الفئة لم تكن مجرّد عنصر سلبيّ مستهلك في هذه الثقافة ، بل ساهمت في "إنتاجها" شعرا ونثرا . فقد صنع السادة عامة والمقيّنون خاصة شعراء وشاعرات

اظهرن قدرة جبارة في مناظرة أعتى الشعراء [102] ، بل تفوقن عليهم [103] . مما جعلهم يقرّون بأن "للجارية عقلا كاملا"[104] .

وقد عدّد لنا الجاحظ المحاور التي وردت على السنتهن في الشعر او في الغناء فقد تحفظ الحاذقة منهم اربعة الآف صوت فأكثر ، كلها في ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة . ولعل هذا ما يفقد الرجال السيطرة على الذات والحكمة في التصرف . فـ "تطير عقولهم وتذهل البابهم"[105] ويطلّقون نساءهم بسبب او بدون سبب في مجالسهن [106] .

وهنا يطرح السؤال أ ان كل شعر الإماء ماجن او متعلق بالحب والغرام ووسيلة من الوسائل التي يعتمدنها في صناعتهنّ أم أن التاريخ والأدب قد سكتا عن باقي شعرهنّ ؟

لقد جردنا الأشعار والاغاني التي اوردها صاحبنا ، فوجدنا استثناء ينمّ حسب تقديرنا عن ان من الإماء من شذذن عن القاعدة ، ونظمن اشعارا غير ذات صلة بالغزل والحبّ .

لكن الضمير الذكوري . في الأرجح . قد تغافل عنها لتبقى الصورة الأولى هي الأرسخ في الأذهان . لأنها تجسّد وتشخّص لهم صورة المرأة المنشودة في لا وعيهم.

ولقد بدا لنا شعر جارية سليمان بن عبد الملك ممثّلا لشعر الأمة الحكيمة التي حولت تعبيرها عن إعجابها بسيّدها من غزل الى حكمة :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير ان لا بقاء لإنسان

ليس فيما بدا لنا منك عيب كان في الناس غير انك فان [107]

وتعدّدت في المقابل اغراض اشعار الغلمان الواردة في مصنّفات الجاحظ فيحتجّون على العمل :

ايبعثني في الشاء وابن مخيلد على هجمة قد لوحتها الطبائخ [108]

او يتحسرون على حياتهم ، ويتألمون من حياة الذل يحيونه :

لعمر ابي المملوك ما عاش انه وان اعجبته نفسه ذليل

ترى الناس انصارا عليه وماله من الناس الا ناصرون قليل [109]

وقد يشتد بهم الألم فيهجون اسيادهم ويفضحون عيوبهم . فقد انتقد بعضهم طريقة تناول سيّده الأكول لطعامه :

اغرك مني ان مولاي مزيدا سريع الى داعي الطعام سروط

غلام أتاه الذل من نحو شدقه له نسب في الواغلين بسيط [110]

وهجا آخر سلاطة لسان سيّده : ان سليطا كاسمه سليط [111] .

واكسب الم الرق البعض الآخر حكمة تبيّن من خلالها استحالة خروجه من ذلّ العبوديّة بالارتماء في احضان النساء وادرك ان سبيل الحرية الوحيد هو العمل والمال . فهو الذي يعتق الإنسان ويعيد اليه كرامته :

وما فك رقي ذات دل خبرنج ولا شان ما لي صدقة وعقول

ولكن نماني عن كل ابيض خضرم فأصبحت ادري اليوم كيف اقول [112]

وادرك عبد بني جعدة ان المقياس الرئيس الذي يقيّم به الإنسان هو اخلاقه ، لا لونه ومركزه الاجتماعي :

قد عاب لوني اقوام فقلت لهم ما عاب لوني إلا مفرط الحمق

ان كان لوني فيه دعجة كلف حزن الإهاب فاني ابيض الخلق [113]

لقد كان جلّ شعر العبيد إذن مصوّرا لحياتهم معبّرا عن جلّ المشاعر التي انتابتهم راصدا وناقلا لحياة طبقة مهمّشة في المجتمع . ولا شك في ان ما ورد في مؤلفات الجاحظ . على قيمته . ليس الا نموذجا بسيطا من اشعار نرجّح ان الزمن قد عفا عليها . ولم يحفظ لنا منه الا ما كان ذا علاقة بالسلطة او بالأدب العالم .

تبيّن لنا مما سبق اذن ان العبيد قد تحوّلوا من مجرد بضاعة الى فئة ذات ادوار اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية متنوعة في مجتمع الجاحظ وفي مصنفاته .ولكن ابا عمرو لم يكن مجرد ناقل ، بل ابدى رأيه في العديد من المواضع رأيه في هذه الظاهرة إما بطريقة مباشرة من خلال تلميحاته أو اسلوب كتابته .فما موقف صاحبنا من العبيد ومما اثروه في مجتمعهم ؟ وكيف عبّر عن هذا الموقف ؟

المحور الثاني

الجاحظ والعبيد

سلّط الجاحظ مجهره على اصناف معيّنة من العبيد ، أبرزها القيان والخصيان ، والسود والصقالبة .

اولا : الجاحظ والقيان

لقد كان الجاحظ من روّاد مجالس "القيان" . وكان يرى ان "الغناء الحسن من الوجه الحسن والبدن الحسن أحسن والغناء الشهي من الوجه الشهيّ أشهى وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة"[114] . لكنه كان . على ما يبدو معتدلا . في هذا الامر . فلم يكن يسمح لنفسه بأن يبالغ في إنفاق امواله عليهن لإيمانه بأن "من لم تكن نفقته تخرج في الكتب ألذّ عنده من عشق القيان ، وإنفاق المستهزئين بالبيان ، لم يبلغ في العلم مبلغا رضيا

، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار العربي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمّل في العلم ما يؤمله الأعرابي من فرسه"[115].

ولهذا هاجمهنّ تصريحا وتضمينا . فعدّهن شرك ابليس الذي يقتل به وفتنته التي يستهوي بها ، بل لو لم يكن له غيره لكفاه . ولذا ايضا روى رسالة لم يشأ حتى التصريح بكونه مؤلفها أو ناقلها ، بل اكتفى بنسبتها الى جماعة من "المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للذة ، المتمتّعين بالقيان وبالإخوان المعدّين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة"[116] . وصدّرها بخمس صفحات لبيان مشروعية إيرادحجج يردّون بها على "من عابهم بملك القيان"[117] ويدّعم نفس السخرية بتعليق يبرز لنا فيه موقفه معلّقا : "فأيّ صناعة في الارض اشرف منها"[118] بل نجده في مواضع اخرى يساوي . عن قصد او دون قصدبين الجواري والبغال . فتحدّث عن البغال الكوفية المولّدة ثم انتقل الى الحديث عن الجواري البصريات المولّدات المشهورات اللائي لعبن دورا بارزا في التاريخ الثقافي [119] دون تفسير . ولا نعرف ان كان هذا مجرد إسقاط لفكرة اعترضته ام انه امر متعمّد يقصد من خلاله تمرير موقفه من انتشار الجواري والقيان في عصره . لا نملك اجابة قطعية عن هذا السؤال . لكننا نرجّح الاحتمال الأخير خاصة اذاما ربطناه بالإشارات السابقة .

أما الفئة الثانية من العبيد التي تحدّث عنها الجاحظ وابدى رأيه فيها ، فهي الخصيان .

ثانيا : الجاحظ والخصيان

لقد اهتم الجاحظ بهذه الفئة اهتماما استثنائيا ، فحلّل خصائصها باعتماد التأمل والتجربة من الشيوخ المعمّرين [120] ، لمعرفة ما يعتريهم نتيجة الخصاء من تغيرات نفسية وجسدية في اسلوب يمزج فيه صاحبه بين العلمي والادبي . اذ يدرس الظاهرة الموجودة في مجتمعها ثم يحللها في نص ادبي فريد من نوعه . ثم يبدي فيها رأيه ناقدا لها . ويبدو لنا ان ابا عمرو في ما ألفه مستهجنا للخصاء رافضا له اعتبره "تمثيلا بخلق الله"[121] . فهو بالنسبة اليه "جريمة" يشترك فيها كل من الخاصي والبائع والشاري اللذين يشجعانه ويدعوانه الى مزيد من الإنتاج . وحسب المرء بالخصاء مثلة ، وحسبه بالخاصي قسوة .

فلئن أقرّ الجاحظ في عدّة مواطن من بحثه بحاجة هذا المجتمع المترف الثري الى من يخدمه ومن يحرس له نساءه . إلا انه يرفض الخصاء الذي ينقص من خصائص الذكور وميزاتهم وفحولتهم . وقد الحّ في اكثر من موضع على ان هذه الصناعة دخيلة على المجتمع العربي الاسلامي يمارسها النصارى الذين يدّعون اللين والرحمة.

ثالثا : الجاحظ وعرق العبيد

يبدو ميل الجاحظ الى عرق دون آخر بارزا في مؤلفاته ،فهو ينتصر للسود ، ويستحضر مفاخرهم الجسدية والفكرية التي مكنت العديد منهم الى برّ الحرية . وفضل العبيد السود على غيرهم من المماليك . فهم الاقدر على تحمّل الصعاب والمشاق . وهم "الاحسن اخلاقا ، والاطيب قلبا والاكثر شجاعة"[122] ، وهم في نظره "فحول لا يجب خصاؤهم لئلا ينقص عطاؤهم ، وتؤهلهم كل هذه الصفات للقيام بالأعمال الشاقة التي يعجز عنها الفحول"[123] . في حين يتخذ بقية العبيد . وخصّ الصقالبة منهم بالذكر . للواط او لحراسة النساء لما فيهم من عيوب خلقية كـ "البلادة وضعف البنية الجسدية ولما يحدثهم فيه الخصاء من لين وجمال يجعلهم أشبه بالنساء"[124]

وقد ابدع الجاحظ في المفاضلة بين العرقين . فكثّف فيه الحجج المبطلة لآراء البيض في السود دليلا على انتصاره لعرق "اجداده" . حسب ما هو متداول . وختمه بقوله "فتأملوا قولنا واحتجاجنا فقد روينا الأخبار وقلنا الأشعار.. وهذا جملة ما حضرنا من اشعار السودان"[124] . وهو تفضيل يبدو مفهوما في عصر صار فيه العرب . بمختلف اعراقهم . مهدّدين في نفسياتهم نتيجة للمزاحمة التي يجدونها من البيض خاصّة .

وليس الجاحظ اول من اهتم بدور العرق في تحديد خصائص الانسان بل هو قول موروث عن بعض الحكماء اقتبسه صاحبنا وطوّعه لما يناسب حياته الخاصة ومواقفه مما يحيط به . هي اذا صورة شبه شاملة لمختلف خصائص حياة العبيد انطلاقا من لحظة عبوديتهم او التحاقهم بسيد جديد .

سعينا انطلاقا مما امدتنا به مصنفات الجاحظ الى الالمام بمختلف جوانب حياة العبيد فتبيّنا مختلف الوظائف والأدوار المناطة بعهدتهم ، وتطرّقنا ايضا الى المقاييس الاخرى التي يتم بوساطتها اختيار الجارية او الغلام وحاولنا تحليل شبكة العلاقات التي يتحرك فيها لنتبيّن موقعه من الحياة الاجتماعية ثم تقصينا . ما استطعنا . مظاهر حضور العبيد ، ذكورا وإناثا ، في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية .

وختمنا بإبراز موقف الجاحظ من هذه الظاهرة في عصره وخاصّة موقفه من الخصيان والقيان والصقالبة والسود . فكان ذلك همزة وصل بيننا وبين مجتمع عصره فمكننا من اكتشاف جانب عادة ما يسكت عنه الادب العالم .

الهوامش

1. الحضارة الاسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة : 409
2. وحديث النعمة عادة هو الأكثر حرصا على ابتياع فره الدواب وفره الخدم والجواري ، ينظر : كتاب الحيوان : 2/ 37 ، لو نظر جميل وعروة ومن سميت من نظائرهم الى بعض خدم اهل عصرنا ممن قد اشترى بالمال العظيم فراهة لون وحسن اعتدال وجودة قد وقوام لنبذوا بثينة وعزة ، ينظر : الرسائل : مفاخرة الجواري والغلمان : 1/ 105
3. البيان والتبيين : 55
4. المصدر نفسه : 55
5. المصدر نفسه : 55
6. محمد بن عبّاد الكاتب مولى بجيلة وابوه من سبي وابق ، كتاب الحيوان : 37/2 ، عبد اسود حبشي ، الرسائل : مفاخرة الجواري والغلمان : 1/ 105 ، الفرز عبد فزارة ، الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 405 ، عبد بن رشيد ، الرسائل

: فخر السودان على البيضان : 189/1 ، عبد بني جعدة ، الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 221 ، نافذ غلام جعفر بن يحيى ، الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 405 ، بشر غلام بن المدبر ، الرسائل : الحجّاب : 43/1 ، عبيد النعالي ، غلام ابي هذيل ، المحاسن والاضداد : 204 ، عنان جارية المأمون ، المحاسن والاضداد : 165 ، عريب جارية المأمون ، المحاسن والاضداد : 165 .

7. ينظر : البيان والتبيين : 319
8. ينظر : المصدر نفسه : 100
9. ينظر : المصدر نفسه : 100
10. مثل الغلام نفيس الذي قال لصاحبه : "يا مولاي انا ناقة وليس في ركبتي دماع" وقوله لغلام آخر "الناس ويلك حياء كلهم اقلّ يريد انت اقلّ الناس كلهم حياء" ، البيان والتبيين : 571
11. ينظر : البيان والتبيين : 98
12. ينظر : المصدر نفسه : 92
13. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 195
14. ينظر : البيان والتبيين : 98
15. ينظر : المصدر نفسه: 224
16. ينظر : المصدر نفسه : 225
17. ينظر : المصدر نفسه : 227
18. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 195
19. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 219
20. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 181

21. "كان في قطيعة الربيع خصيّ اثير عند مولاه عظيم المنزلة عنده وكان يثق به في ملك يمينه وفي حرمه من بنت واخت وزوجة " ، الحيوان : 1/ 108
22. ينظر : الرسائل : رسالة الحجّاب
23. والحديث عنهم موزع في كل مصنفات الجاحظ وخاصة رسالة القيان ورسالة الحجاب والمحاسن والاضداد : 294 ـ 298
24. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 172
25. ينظر : الرسائل : كتمان السر وحفظ اللسان : / 151
26. ينظر :المصدر نفسه : 1/ 164
27. الرسائل : رسالة الحجّاب : 47
28. الرسائل : رسالة الحجّاب : 69
29. المحاسن والاضداد : 299
30. ينظر : الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 219 ـ 220
31. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 215
32. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 195 ـ 201
33. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 224
34. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 224 ـ 225
35. كتاب الحيوان : 1/ 83
36. ينظر : كتاب الحيوان : 1/ 84
37. ينظر : المحاسن والاضداد : 29
38. ينظر : المصدر نفسه : 296
39. ينظر : البيان والتبيين : 372
40. ينظر : كتاب الحيوان : 6 / 170 ـ 171

41. ينظر : المصدر نفسه : 6 / 171 ـ 172

42. ينظر : المصدر نفسه : 6 / 167

43. ينظر : المحاسن والاضداد : 161 ـ 162

44. ينظر : المصدر نفسه : 69

45. المصدر نفسه : 69

46. ينظر : البيان والتبيين : 355

47. ينظر : كتاب الحيوان : 6 / 170

48. البيان والتبيين : 555

49. ينظر : الرسائل : كتاب النساء : 143

50. ينظر : المصدر نفسه : 157

51. ينظر : الرسائل : كتاب القيان : 175

52. ينظر : الرسائل : كتاب النساء : 158

53. ينظر : المحاسن والاضداد : 192

54. ينظر : المصدر نفسه : 192

55. ينظر : المصدر نفسه : 190

56. ينظر : كتاب الحيوان : 6 / 170 . 171

57. ينظر : المحاسن والاضداد : 200 ـ 202

58. ينظر : المصدر نفسه : 208

59. ينظر : كتاب الحيوان : 1/ 107

60. ينظر : الرسائل : كتمان السر وحفظ اللسان : 1/ 147

61. ينظر : كتاب الحيوان : 6 / 170. 171

62. ينظر : المصدر نفسه : 6/ 170 ـ 171

63. ينظر : المصدر نفسه : 6/ 170 ـ 171

64. ينظر : المصدر نفسه : 6 / 158

65. ينظر : المحاسن والاضداد : 168

66. ينظر : المصدر نفسه : 168

67. ينظر : الرسائل : كتاب القيان : 175

68. ينظر : المصدر نفسه : 177

69. ينظر : المصدر نفسه : 179 ـ 180

70. ينظر : المصدر نفسه : 179

71. ينظر : الحيوان : 1 / 104

72. المصدر نفسه : 1/ 104

73. المصدر نفسه : 1/ 77

74. المصدر نفسه : 1/ 82 ـ 83

75. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 91

76. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 110

77. المصدر نفسه : 1/ 111

78. المصدر نفسه : 1/ 91

79. الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 212

80. الرسائل : كتاب القيان : 165

81. الحيوان : 6/ 170

82. الرسائل : ذم الكتّاب : 162

83. الرسائل : رسالة الحجّاب : 1/ 47

84. المصدر نفسه : 1/ 57

85. الرسائل : كتاب القيان : 156 ـ 157

86. المحاسن والاضداد : 164

87. ينظر : المصدر نفسه : 193

88. المصدر نفسه : 193

89. المصدر نفسه : 193 ـ 194

90. ينظر : المصدر نفسه : 193 ـ 194

91. البيان والتبيين : 168

92. الرسائل : مفاخرة الجواري والغلمان : 1/ 107

93. المصدر نفسه : 1/ 107

94. البيان والتبيين : 555

95. المصدر نفسه : 555

96. المحاسن والاضداد : 168 ـ 169

97. المصدر نفسه : 298 ـ 299

98. الرسائل : كتاب الحجّاب : 1/ 69

99. المصدر نفسه : 1/ 46

100. ينظر : المصدر نفسه : 1/ 46

101. ينظر : المحاسن والاضداد : 160 ـ 169

102. ينظر : المصدر نفسه : 161

103. المصدر نفسه : 168

104. المصدر نفسه : 169

105. ينظر : المصدر نفسه : 169

106. البيان والتبيين : 457

107. الهجمة هي قطيع الابل ، الطبائخ هي الهاجرة ، المصدر نفسه : 507

108. المصدر نفسه : 55

109. المصدر نفسه : 355

110. المصدر نفسه : 355

111. المصدر نفسه : 492

112. الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 221

113. الرسائل : كتاب النساء :3 / 143 ـ 144

114. الحيوان : 1/ 57

115. الرسائل : كتاب القيان : 143

116. المصدر نفسه : 146

117. المصدر نفسه : 180

118. ينظر : الرسائل : كتاب البغال : 1/ 288 . 290

119. ينظر : كتاب الحيوان : 6 / 77 ـ 111

120. ينظر : المصدر نفسه : 6 / 85 ـ 104

121. الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 178 ـ 182

122. المصدر نفسه : 1/ 178 ـ 182

123. كتاب الحيوان : 6 / 170

124. الرسائل : فخر السودان على البيضان : 1/ 178 ـ 182

Refrences

- البيان والتبيين الجاحظ،تحقيق : محمدعبدالسلام هارون، دارالجيل، بيروت لبنان،د.ت
- الحضارة الاسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ـ توفيق بن عامر ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، تونس ، 1998
- رسائل الجاحظ تحقيق وشرح : عبدالسلام محمدهارون،مكتبةالخانجي،القاهرة،مصر،ط1 ، 1979
- كتاب الحيوان الجاحظ،تحقيق : عبدالسلام هارون،المجمع العلمي الاسلامي، داراحياءالتراث العربي، 1969
- المحاسن والاضداد الجاحظ ، تحقيق : فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت ، 1969